أثر الهاجس العمراني عند ابن خلدون في تناول الظاهرة الأدبية

د. عبد الحميد سيف الحسامي
أستاذ الأدب والنقد المشارك بجامعتي إب والملك خالد

أولاً: المقدمة

تحتل مقدمة ابن خلدون مكانة مرموقة بين منظومة المؤلفات العربية لأنها تحوي خلاصة الفكر الخلدوني في مسألة الاجتماع الإنساني وتشير إلى أن فكر ابن خلدون لم يكن انتقائياً تلفيقياً بل كان فكراً موسوعياً نقدياً (1) وقد تضمنت نسيج المعارف المتضافرة في تشكيل الظاهرة العمرانية وكان الأدب من جملة تلك العلوم التي لم يكتف باستعادة تصنيفها المعهود بل حاول « إدماج تصنيفه للأدب في تصور عام للعمران بحيث إن وجود العلوم ومرتبة بعضها لبعض يتعلقان بمدى العمران « (2) النظر الفاحص في الفصول التي عقدها للظاهرة الأدبية وما يتصل بها يلمح تواشجاً متيناً بين هاجس العمران المهيمن على ابن خلدون ونظرته للظاهرة الأدبية ، ومن الصعب أن تفهم أطروحاته في علوم اللسان عموماً إلا بالنظر إلى فكره ككل ولذلك اتجهت هذه القراءة إلى مساءلة آراء ابن خلدون ككل من خلال استقراء إنجازه المعرفي في المقدمة لأن ذلك يمنحنا القدرة على فهم آرائه المختلفة في علوم اللسان ومنها الأدب ولا سيما وأن بعضاً من آرائه يتسم بالغرابة والجدة ومخالفة المألوف ولذا فقد أخذت هذه القراءة على عاتقها تتبع أثر الهاجس العمراني على تصوره للظاهرة الأدبية لأننا بذلك نعمد إلى تلمس النسق المضمر المتحكم في تشكيل البنى السطحية لتصوره للأدب وقضاياه

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت المقدمة إلا أن هذا الموضوع لم يدرس مستقلاً على حد علم الباحث مما يعزز القيمة العلمية لهذا البحث الذي نأمل أن يكون إضافة نوعية للدراسات التي تناولت آراء ابن خلدون وجهوده العلمية.

ثانياً: تجليات الهاجس العمراني في تناول القضايا الأدبية

يمكننا القول إن ابن خلدون حينما وضع كتابه « العبر ، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» كان همه منصرفاً إلى تدوين التاريخ والعمران البشري والنظر في الأحوال والعوارض التي تعرض للاجتماع البشري .

وحينما عرض لأصناف العلوم والصناعات المكتسبة إنما كان ذلك لسبب ارتباطها بطبيعة العمران ومحك اختصاص الإنسان بها « العلوم والصنائع هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات « (3)

ومن تلك العلوم علوم اللسان التي تناول طيّها الظاهرة الأدبية لأن الفكر أسرع من لمح البصر وعن

هذا الفكر تنشأ العلوم والصنائع « (4).

بمعنى أن ابن خلدون لم يكن راغباً في إحصاء مسائل الأدب واللغة وإنما « تعيين موضع العلم وتنويع فصوله « . وليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله ... « (5)

فهو لم يكن ناقداً ولا أديباً إنما هو عالم اجتماع وفقيه بيد أن إشاراته إلى العلوم الأخرى قد عدّها استنباطاً ولكن هذا الاستنباط لا يعني التفرغ في دراسة المسائل التفصيلية ، كما أن تلك الاستنباطات تشير إلى مكنةٍ وثيقة لدى ابن خلدون في هذه العلوم حتى ليقال إنه عالم موسوعي.

ويبدو أن رؤاه التي انطلق منها لتفسير الظاهرة الاجتماعية قد أسقطها على الظاهرة الأدبية في كثير من المواقف

أبرزها ما يأتي : -

1- البعد الإنساني:-

يقول ابن خلدون :الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن ذلك بقولهم الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع «

لأن الإنسان كائن اجتماعي « وحقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم ولما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال ... «وهناك مجموعة من « ما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والصنائع « (6)

وهذا البعد الإنساني الذي نفذ منه لدراسة الاجتماع اتخذه منطلقاً لرؤية الظاهرة الأدبية في مثل قوله : « اعلم أن الشعر لا يختص باللغة العربية فقط بل هو موجود في كل لغة « فحينما تحدث عن صناعة الشعر قال « هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات إلا أننا إنما نتكلم في الشعر الذي للعرب «(7).

ومع تأكيده عالمية الظاهرة الأدبية ، إلا أنه يبين ملامح الاختلاف وحدود الخصوصية لكل أمة من الأمم ، « فلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه وهو أي الشعر في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحىّ».

وعند تناوله لظاهرة الغناء يضع تأصيلاً للبعد الجمالي لدى الإنسان عموماً فيؤكد أنها مسألة وجودية يقول : « ولما كان أنسب لأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني كان إدراكه للجمال والحسن في تخاطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب إلى فطرته فيلهج كل إنسان بالحسن»(8)

فالبعد الإنساني حاضر في ذهنه وهو يتناول قضايا العمران وقد انسحب ذلك على الأدب بوصفه من جملة صنائع العمران .

2- مفهوم الصناعة :

يرى ابن خلدون أن العلوم من جملة عوارض العمران الذاتية " الملك والسلطان ، والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما ذلك من العلل والأسباب وقد خص هذه العوارض بكتاب كاملً " الكتاب الأول في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب " (9)

ولذلك يذهب في تفسيره للظاهرة الأدبية هذا المذهب ويؤكد بقوله « وقد تقدم لك قبل أن الألسن واللغات شبيهة بالصنائع « (10)

«والملكات اللسانية كلها إنما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين « (11).

وحينما تناول « عملية الإبداع الشعري « تبنى تلك الرؤية الآلية لبناء القصيدة أي الصناعة « وعلى الرغم من طغيان مفهوم الصناعة على الشعر خاصة والأدب عامة في النقد القديم فقد قال أكثر النقاد بضرورة الموهبة والطبع في الشاعر أولاً ودعوا إلى دعمها بالثقافة والمراس وما إليها ثانياً « (12) ولكن ابن خلدون تبنى تلك الرؤية القائلة بالصناعة حيث نرى من العنوان أنه سمى الفصل الخاص بهذه القضية

« الفصل السادس والأربعون في صناعة الشعر وتعليمه « فالشعر صناعة ويمكن اكتسابه بالتعلم « يقول:» فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته ثم يستأنف في البيت الأخر كلاماً آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود.. (13).ثم يناسب بين بيت في موالاة بعضها مع البعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة .. « .

وفي هذا المضمار يبين شروط إنتاج الشعر فيقول : « اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً : أولها: الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ ملكة ينسج على منوالها ، ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب . وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شاعر من الفحول الإسلاميين ...) ومن هذه العبارة نجد أن ابن خلدون يركز على «ذعمل الشاعر وإحكام صناعية « فالشعر مجرد عمل ، وصناعة «وأول شروطها الحفظ للمتخير من الشعر .. « واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ .. « ثانيها: النسيان :

« وربما يقال إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة إذ هي صادرة عن استعمالها بعينها فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يؤخذ بالنسخ عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة « فالحفظ يشكل البنية العميقة «القالب « الذي يستوعب النماذج المختلفة بينما يهيئ النسيان إمكانية تعدد البنى السطحية التي تعتمد على البنية العميقة فتأتلف معها في القالب العام ولكنها تختلف عنها في التجلي اللغوي ولهذا « فإنه على قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة «ويحذر من حفظ أشعار الفقهاء والنحاة والمتكلمين وكذلك شعر الربانيات والنبويات لأن معانيها مبتذلة (14).فهو شديد الحرص على أن تكون اللغة الشعرية» لغة علياً». وحفظ أشعار من هذا النوع يشكل ملكة ذات قالب فقهي أو نحوي... على شاكلتها ويتعسر على الملكة الأدبية المطبوعة أن تتعايش مع هذه الأنماط الشعرية التي تخرج عن الشعر وتعد هذه التفاتة ذكية من ابن خلدون مدركة لخصوصية اللغة الشعرية .

وقد يذكر ابن خلدون « القريحة « ولكنها ليست فاعلة بل منفعلة ترتهن للمحفوظ إذ يقول : « ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال ..يقبل على النظم « وبالإكثار منه تتحكم ملكته وترسخ «

ولم يقف بنا ابن خلدون على مفهوم القريحة على الرغم من إشارته في موضع آخر إلى أن الشعر «

نبات فكرة واختراع قريحةً إذ يبدو أن هاجس الصناعة العمرانية وإيمانه بمبدأ السببية مستولٍ على تفكيره حتى وهو يذكر القريحة فإنه يسند إليها فعل الاختراع ...

فالمسألة عمل صناعة ، دربة « إكثار من الحفظ «

والشاعر صانع « يبني الكلام عل القافية « وكل بيت مستقل بنفسه ولم تبق إلا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء «

ثالثاً : المهيئات

هناك أسباب ومهيئات للشعر تسهم في دفع الشاعر إلى صناعة قصيدته « وهذه المهيئات النفسية أو الأسباب هي :

*-الخلوة « ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان من المياه والأزهار وكذلك المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها بملاذ السرور ثم مع هذا كله شريطه أن يكون على جمام ونشاط فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي حفظه» .

* وخير الأوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وفي هؤلاء الجمام. وربما قالوا إن من بواعثه العشق والإنشاد «

فالقريحة كسلى لابد لها من مهيئات ومنشطات خارجية كالخلوة ، والمكان المناسب والزمان الأنسب ومهيئات جسدية وفكرية : مثل فراغ المعدة ونشاط الذهن " أو العشق والانتشاء".

ونلحظ أن ابن خلدون لم يتطرق إلى الإلهام أو الموهبة أو ما في معناهما إذ نجد إيمانه المسرف بمسألة الصناعة وليس ذلك إلا انعكاساً لاستيلاء النزعة الجبرية في تناوله للعمران (15) ونظرته إلى الظواهر الاجتماعية والظواهر الطبيعية نظرة واحدة (16) وسلوكه منهجاً وضعياً تجريبياً(17) . فضلاً عن استيلاء مفهوم الصناعة العمرانية ولذلك يرشح ابن خلدون كتاب العمدة لابن رشيق لانتخاب هذه المواصفات فيقول: " فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى " في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن أراد استيفاء ذلك فعلية بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك " (18)؛ لأن ابن رشيق ممن يؤمنون بأن الشعر صناعة كما أنه مغربي ولذلك كان اختيار ابن خلدون له .

ولما كان الشعر لدى ابن خلدون صناعة فإنه يميل إلى مذهب القائلين مدار هذه الصنعة في الألفاظ لا في المعاني (19).

3- مفهوم الأسلوب :

يبين ابن خلدون مقصود مقصود العرب بمقولة بالأسلوب قائلا: يريدون بها في إطلاقهم: أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ به»(20)

وهو لا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن « الذي هو وظيفة العروض إنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباعها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويعيدها في الخيال كالقالب أو المنوال

ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب لحصول التراكيب الصحيحة الوافية بمقصود الكلام وتقع على الصورة باعتبار ملكة اللسان العربي فإن لكل من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة ... «

فالأسلوب قالب تشكل في الذهن ، وما على المبدع إلا أن ينتقي ويرص شأنه شأن البناء وتكون العملية الإبداعية صناعة ولذلك ينعى على من يعد العرب ناطقة بالطبع إذ يقول :

ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعرابا وبلاغة أمر طبيعي ويقولون : « كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنه جبلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه « (21)

واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم « الذوق «... «(22)

وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب

ولذلك فإنه حينما تحدث عن أحوال الموالي والمصطنعة في الدول قال : (23)

« اعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها .. والمعنى الذي كان به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة بالمربي والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة ... «

وعندما تحدث عن الفرس والروم والترك بالمشرق والأعاجم والبربر بالمغرب الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه يقول : « لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة « (24)

ويعلل تفوق بعض الأعلام من غير العرب في العلوم الإسلامية بأن الزمخشري وسيبويه والفارسي ما حصلت لهم هذه الملكة إلا لأنهم كانوا عجماً في نسبهم فقط أما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب واستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شيء وراءها».

« حتى أن طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طلبه بين أهل اللسان العربي جاء مقصراً في معارفه عن الغاية والتحصيل ، فالألسن واللغات شبيهة بالصنائع «

ويحكم - بحسب ما تلقاه عن شيوخه - أن نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب من الأمم ،فهو حريص على صفاء الملكة والمحافظة على سلامة القالب المتشكل من الخدش ولولا وقوعه تحت سطوة فرضياته لما استساغ حكم شيوخه ولأدرك بذائقته التي يعول عليها دائما جماليات شعر هذين الشاعرين.

<u>4- مفهوم الأطوار:</u>

إن فكرة انتقال الدولة في أطوار مختلفة من أطوار الظفر بالبغية / طور الاستبداد ، طور الفراغ والدعة والتحصيل / طور القنوع والمسالمة / طور الإسراف « من ملازمات العمران ... كما أن آثار الدولة إنما تحدث عن القوة وعلى قدرها يكون الأثر» إذا حصل الملك تبعه الرقةُ واتساع الأحوال ، والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام في الصنائع « (25)

ولذلك يذكر أن العرب وهم في الطور الأول من البداوة عاجزون عن ذلك جملة لفقدان أسبابه

والقائمين على صنائعه في غضاضتهم وسذاجتهم «
إذ أن أمور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والثروة والنعم من توابع الملك .. فاعتبره وتفهم تجده صحيحاً في العمران « (26) بمعنى « أن تطور العلوم يرتبط بشكل وثيق بتطور العمران ولا يعني هذا التطور إلا المدن وحدها ويتطلب أيضاً نوعاً من الاستقراركي تستطيع التقاليد العلمية أن تترسخ من خلال التعلم « (27) ومن هذا المنطلق ذهب ابن خلدون في تفسير الظاهرة الأدبية فإذا كان جمهور النقاد يذهبون إلى أن شعر الجاهلين يعد الأنموذج الأرقى في البيان العربي ، وذروة البلاغة وهو المعيار الذي يعود إليه المرء عند الاحتجاج « بوصفه حائزاً على درجة وافية من النضج والاستواء فصار المثل الشعري الأعلى الذي ينبغي أن يحتذى «(28).. فإن ابن خلدون يقدم رأياً آخر جديراً بالنظر فيقول « إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم..» (29) بل يذهب إلى أبعد من ذلك ليتجاوز إلى صدر الدولة العباسية « فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدراً من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في مناوراتهم ومحاوراتهم « وربما يتساءل المرء عن سر تقديمه هذه الطائفة من الشعراء فيجيب ابن خلدون : والطبع السليم والذوق الصحيح شاهد بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من القرآن الكريم والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما «
وإذا ما عدنا إلى قوله : إن العرب لا تدرك الملك إلا بالدينً تبين لنا سبب نظرته في تقديم الشعراء الإسلاميين ومن تلاهم على الجاهليين ،فالدين حقق الملك والاستقرار للدولة الإسلامية الجديدة وقبل أن يحدث الاستقرار ضعف الشعر إذ « انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ... ثم جاء بعد ذلك الملك والدولة العزيزة وتقرب إليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها ولم يزل هذا الشأن أيام بني أمية وصدراً من دولة بني العباس (30)
ولذا فإنه ينصح الشعراء بحفظ أشعار أمثال هؤلاء « الفحول الإسلاميين مثل ابن أبي ربيعة ، وكثير وذي الرمة وجرير وأبي نواس وحبيب والبحتري والرضي وأبي نواس « ولم ينصحهم بحفظ أشعار الجاهلين .
وإذا نظرنا إلى الموشح الأندلسي فإننا نجد تأكيد ابن خلدون ارتباط نشأته بمسألة التطور يقول : « فلما كثر الشعر فيها وتهذبت مناحيه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منه فناً سموه بالموشح (31).
وحينما تناول قضية الكتابة العربية أشار إلى أن الرسم القرآني ليس خاضعاً لأسرار دلالية بل إنه ينظر إلى الكتابة من منظور التطور فالعرب لا زالوا بدواً وهذه الكتابة تجسيد لبداوتهم إي أن ما ورد من فروق بين الخط العربي حين اكتماله والرسم القرآني يعود إلى قصور العرب عن إدراك شروط الخط وآلية الكتابة ويسفه آراء القائلين بغير ذلك قائلاً : « ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض

المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وإنما يتخيل مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه ... مما لا أصل له إلا التحكم المحض وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط ونسبوا إليهم الكمال بإجادته وطلبوا تعليل ما خالف تلك الإجادة وذلك ليس بصحيح « (32)

« فالخط من الصنائع الحضرية « (33) وترقت الخطوط إلى الغاية لم استبحرت في العمران « (34) وهذا الرأي الخاص بالرسم القرآني رأي يخالف آراء الكثيرين ومن أولئك الزركشي (35) والسيوطي(36) وغيرهما إذ يرى الزركشي - مثلاً - أن للرسم القرآني حكماً خفية وأسراراً بهية اهتدى إليها أبو العباس المراكشي الشهير بابن البناء في كتابه : عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل .

وعقد لها الزركشي فصلاً كاملاً سماه علم مرسوم الخط وعلى اثره اقتفى السيوطي وغيره من المؤلفين في علوم القرآن كما أن تعدد صورة الرسم الإملائي لبعض كلمات القران يشير إلى أن هناك اسراراً ولو كان الأمر مقصوراً لتوترات الكتابة للكلمة الواحدة بالصورة نفسها في كل القران لكن الهاجس العمراني وإخضاع الظواهر المختلفة لدى ابن خلدون لنظرية التطور العمراني أملى عليه مثل هذا الرأي .

ويعمد إلى استقراء الظاهرة الشعرية العربية وفقا لمنظرية الأطوار يقول : أما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسق بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون في تلك الأجزاء تفصيلاً .... ثم تغنى الحداة منهم في حداء إبلهم والفتيان في فضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات وترنموا وكانوا يسمون الترنيم إذا كان في الشعر غناءً ... ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا ... فهجروا ذلك شيئاً ما ... فلما جاء الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستجلاء الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجازوصاروا موالي العرب ... وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم ... إلخ « وفي هذا السياق أشار إلى الشعر البدوي المشرقي الذي يطلق عليه حين يغنى بالغناء الحوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام ، كما ذكر فناً كثيراً التداول في نظم العرب يجيؤون به معصبا ..شبيهاً بالمربع والمخمس الذي استحدثه المولدون(37)

5- العصبية:

تعرف العصبية بأنها : « رابطة اجتماعية سيكلوجية شعورية ولا شعورية معاً تربط أفراد جماعة ما ربطاً مستمراً «(38) بل هي القوة الجماعية التي تمنح القدرة على المواجهة (39)

إذا كان الملك والدولة العامة إنما يحصل بالقبيل والعصبية فهذا الحكم ينطلى على الظاهرة الأدبية في نظر ابن خلدون : يقول في شأن المعلقات .

« كان رؤساء العرب منافسين فيه – أي الشعر- وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجه على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأ عشى وغيرهم

من أصحاب المعلقات السبع فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقوم وعصبية ومكانة في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات .

فالعصبية – في نظره – تحقق دولة الملك ، كما تحقق دولة الشعر ، فليس التفوق الإبداعي للمعلقات أو نفاستها لديه هو مناط التعليق بل العصبية .

وإذا نظرنا إلى الكتابة النثرية فإن إشارته إليها جاءت مرتبطة بالهاجس العمراني فهو يتناولها في باب ديوان الرسائل والكتابة (40) وينتخب رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب لتكون دستوراً لهم ، ويرى ابن خلدون أن الكتابة إنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد « وإذا تفحصنا نصه الذي ينصح فيه الشاعر بحفظ شعر الإسلاميين بقوله : « اقل ما يكفي فيه شاعرٌ من الفحول مثل أبن أبي ربيعة وقوله : وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثير ما يعرض شعره على عبد الله بن عباس فيقف لاستماعه معجباً به « (41) سنجد أن هذا النص لم يكن بريئاً بل منطلقاً من مفهوم العصبية فالشاعر الأقوى عصبية هو الأقوى شاعرية وينسجم تقديمه لعمر بن أبي ربيعة القرشي مع رؤيته السياسية إذ يقف في صف القائلين بشرط القرشية للإمامة « فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالية على من معها لعصرها ليستتبع من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية (42) .

6- تنازع الملكات :

تهيمن فكرة المنافسة على فكر ابن خلدون إذ أن المجتمع القبلي يقوم عل منافسات دائمة بين مختلف العصائب وعلى توازن حاصل عن ميزان القوى فيما بينها وتتحكم القبيلة الأكثر قدرة « (43) وفضلاً عن تنافس القبائل يشير ابن خلدون في الفصل « الثاني والعشرون» (44) بعنوان فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعد في ملكة أخرى» إلى قضية تنافس الملكات» وأن الخياط مثلاً إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لقبولها فإذا تكونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة أضعف «

وينسحب الحكم نفسه على الظاهرة الأدبية فيعقد فصلاً " الخامس والأربعون " بعنوان في أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل "لأن الملكة اللاحقة إذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة وعائقه عن سرعة القبول فوقعت المنافاة وتعذر التمام في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق فالأعجمي يكون قاصراً على استيعاب اللسان العربي ." وفي ذلك دعوة إلى التخصص ،وَحسم المواهبَ لكن ابن خلدون يتناقض بين ما يقوله هنا وما فعله في المقدمة التي حاول أن يبرز تفوقه في معرفة مختلف العلوم .

وحينما تناول قضية ضعف الشعر في عصر صدر الإسلام ذكر سبباً يتعالق وهذه النظرة " ثم

انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فاخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً " فالقرآن له أسلوبه أي أنه قالب لغوي جديد ، ولذا لم يكن شعراً ولا نثراً." فانشغال العرب بالقرآن واندهاشهم بقالبه الأسلوبي أخرهم زمناً عن الشعروالنثر فالقبائل تتنافس وتتنازع الملك والصنائع تتنافس لدى الفرد والقوالب الأسلوبية تتنافس وتتنازع كذلك .

وهذه الأحكام التي يرصدها ابن خلدون تنبع من هيمنة فكرة المنافسة والمنازعة وهي فكرة عمرانية في المقام الأول .

ثالثاً: الخاتمة

نستنتج من خلال هذه الدراسة ما يأتي :

1- تتفرد قراءة ابن خلدون للظاهرة الأدبية بأنها قراءة مندغمة في سياق بحثه الاجتماعي بوصف الأدب ظاهرة عمرانية ترتبط بظروف العمران نشأة وانقراضاً قوة وضعفاء وتنتخب قراءته من القراءات السابقة في التراث النقدي ما يعزز مسارها ويعضد فرضياتها ، لكنها لا تستسلم لما يخالفها بل تؤسس استقلاليتها بصرامة مسيجة بالبعد المنهجي الذي انتهجته .

2- أن الهاجس العمراني لدى ابن خلدون قد فرض نفسه على تناوله للظاهرة الأدبية فتجلى ذلك في عدة مظاهر منها : البعد الإنساني ، مفهوم الأسلوب ، مفهوم الصناعة ، مفهوم الأطوار ، العصبية ، تنازع الملكات .

3- أن آراء ابن خلدون الأدبية ظلت محكومة بانشغال الهاجس العمراني الذي يبتغي تقريره مما حدا به إلى ادراج الأدب في منظومة الصناعة العمرانية مع إغفاله لخصوصية الإبداع الأدبي وصعوبة إخضاعه لصرامة المنهج التجريبي مما أوقعه في بعض التناقضات

4- أن أحكام ابن خلدون اتسمت بصفة القطعية حتى أنه يسفه آراء مخالفيه طالما انسجمت أحكامه مع منهجه في تناول الظاهرة العمرانية ومن ذلك تقديمه للشعراء الإسلاميين على الجاهليين وتأكيده البعد الصناعي للشعروغيرها

رابعاً الهوامش:

1- فكر ابن خلدون ، ص91.
2- الخطاب التاريخي ص59.
3- المقدمة ص40.
4- نفسه ، ص429 .
5- نفسه 588.

6- نفسه ، ص35.
7- نفسه ، 569.
8- نفسه،ص 425.
9- نفسه ،ص 6.
10- بناء القصيدة في النقد العربي القديم ص11.
11-نفسه 570.
12- نفسه ، ص568.
13- نفسه ، ص ص 578، 579.
14- فكر ابن خلدون ص120.
15- نفسه 118.
16- نفسه ، 119.
17- المقدمة ، 575.
18- نفسه 577.
19- نفسه ، 570.
20- نفسه ، 562.
21- نفسه 563.
22- نفسه ، 563.
23- نفسه 172.
24- نفسه ، 184.
25- نفسه 174.
26- الخطاب التاريخي ، ص 209.
27- حركة النقد ، 11.
28- المقدمة ، 580.
29- نفسه 581.
30- نفسه ، 583.
31- نفسه ، 419.
32- نفسه ، 418.
33- نفسه ، 420.
34- البرهان في علوم القرآن ،ج1 380.
35- الإتقان في علوم القرآن ،ج2 535.
36- المقدمة ص582
37- فكر ابن خلدون ، 245.
38- نفسه ، 257.

39- المقدمة ، 246.
40- نفسه ، 581.
41- نفسه ، 196.
42- الخطاب التاريخي ،152.
43- المقدمة ، 405.

خامساً: المصادر والمراجع

1- الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي دار الفكر ط1 1999م
2- البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، دار الفكر . ط3، 1980م.
3- بناء القصيدة في النقد العربي القديم ، يوسف بكار ، دار الأندلس ، ط2 1982م.
4- حركة النقد العربي الحديث في الشعر الجاهلي.ريم هلال اتحاد الأدباء والكتاب العرب دمشق1999م .
5- الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون ، علي أومليل ، معهد الإنماء العربي ، بيروت .
6- فكر ابن خلدون ، العصبية والدولة ، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي ، محمد عابد الجابري ، دار الشؤون الثقافية بغداد (د . ط)